الغفران الأخير

صفاء عبد الصبور

الكاتبة فى سطور

ـ صفاء عبد الصبور أمين

ـ من محافظة القاهرة

ـ حاصلة على بكالوريوس خدمة إجتماعية

ـ صدر لها رواية بعنوان " خريف مريم " في معرض الكتاب ٢٠١٧

ـ شاركت في عمل جماعي بعنوان " لحظات قبل موتها "

قصة (الغفران الأخير)

كل شيء يبدو على ما يرام ومنمق ومنظم بعناية فائقة، والمنظر مبهج للغاية للناظرين بداخل بيتي، إلا أنا ... وكعادتنا كل صباح نتناول إفطارنا سويًا كما اعتدنا منذ خمسة عشر عامًا، وبابتسامة وقبلة أودع يوسف زوجي قبل ذهابه إلى عمله، وبعد ذلك أنهض لتبديل ملابسي للذهاب إلى (الجيم) لأواصل يومي كالعادة .. كل شيء في حياتي تحول إلى آلية شديدة، وروتين قاتل، وكأن كل منا يؤدي دوره ببراعة في تجربة الصبر والرضا بالمقسوم، ولكن الحقيقة هي أن كلانا يعاني في صمت ورجاء وترقب لأي انفراجة أو أي بصيص من الأمل، كلانا يتشبث بالآخر، ولكني لم أعد أقوى على الإستمرار معه وأنا أُشكل عبئًا عليه.. لعدم قدرتي على الإنجاب مجددًا.

أسرار فوق أسرار ... تسحقني نظراتهم إلي، وما تحويها من معاني وأشياء جديدة طرأت على حياتي، وأنا فقط التي لا تعرفها، بل أنا لا أريد أن أرى أو أستوعب أو أصدق ما يحاولون إخباري به، لا أريد سوى أن أظل على قناعة أنه لم ينكث بعهدنا وميثاق حبنا.

أعوام مضت وأنا أخضع للأدوية، وعمليات الحقن المجهري، وبعد محاولات عدة نجحت آخر العمليات في أن تمنحني حلم الأمومة، وأن أشاهد بعينيَ وليدي .. بل ومنحتني الحياة عامين ونصف العام من السعادة البالغة وحلم عمري بين يديَ، أحتضنه وأُقبله وألعب معه، وأراه يكبر يومًا بعد يوم، إلى أن اختاره الله في يوم كان أقل نورًا، ووجدتني أحتضن السراب بدلًا عنه، وأستيقظ في غرفة المستشفي بعد أن حاولت الإنتحار بتعاطي بعض الأقراص، ولكن الأطباء أنقذوني من الموت وكأن الله يمنحني فرصة جديدة للحياة، ولم يشأ ليَ أن تنتهي حياتي بمثل هذه الطريقة وهو عز وجل غاضب عليَ لإنهاء حياتي بيدي.

ولكن الإنسان دائمًا ظلوم، جهول، قانط، فبدلًا من أن أتفهم الحكمة والعظة والفرصة العظيمة التي أخذتها للحياة مجددًا، غرقت في الهم والحزن واليأس، وأعرضت .. ومنذ ذلك اليوم الذي تعافيت فيه وأنا دائمة التعصب والشجار مع يوسف زوجي، وهو دائم التسامح والتفهم لحالتي ولفترة الإكتئاب التي طالت كثيرًا، واليوم .. أريد أن أعرف الحقيقة منه، حقيقة نيته للزواج من أخرى، وانتظرت عودته .. وبمنتهى الهدوء تحدثت إليه في الأمر ورفعت عنه الحرج،

وأكدت له أنني لن أمانع ذلك ولن أتغير تجاهه، بل وأخبرته بأنني وجدت له الزوجة المناسبة.

_(فيانكا) الفتاة الإنجليزية التي استضفناها العام الماضي .. أتذكرها؟

يوسف في تعجب :

_وما ذكرك بها الآن؟

_هي الزوجة التي أراها مناسبة لك

_قطعًا أنتِ تمزحين

_ بل أنا جادة تمامًا .. فيانكا فتاة جميلة ومنظمة وذكية، وتتمتع بمميزات لن تجدها في فتاة أو إمرأة هنا، وأنا أريد لك أن تنجب طفلًا يرث جمالها وذكاءها، ولا تلقي بالًا لإختلاف الثقافات والعادات، فأنا أرى أن الغرب متفوقون في كل شيء.

ظللت أقنعه بها وبضرورة ومميزات الزواج منها، لأنني في حقيقة الأمر لن أحتمل أن تكن لي (ضرة) مصرية، فهذه الفتاة لن تفعل ما يفعلنه النساء هنا من أمور كيدية.

وبعد مناقشات عديدة إقتنع يوسف بالفكرة، وبالفعل عرضتُ على فيانكا الأمر وأنا على ثقة من أنها سوف توافق، لأنني أعلم جيدًا أنها عملية، ولن تضيع فرصة الزواج من رجل أعمال ثري، خاصة وأنها كانت دائمًا ما تقول لي أن لديها خططًا ومشاريع كثيرة، ولكن ينقصها المال .. وبالفعل وافقت وتم الترتيب لكل شيء، وشعرت بعد ذلك براحة تجاه الأمر، فيكفي أن فيانكا تعاملت مع عرض الزواج علي أنه مشروع وعمل وإقامة .. وليس أكثر، فهذا مريح بالنسبة لي عدم وجود مشاعر.

أن يسير كل شيء كما أريده، وأن ينفذ يوسف أوامري .. بالنسبة لي إرضاءً لغروري، أو بالأحرى تعويضًا عن مشاعر النقص ونيران الغيرة التي تأججت بداخلي.

لقد تصورت أنني لن أغار منها، ولكن صدري أوغر منها وأنا أراها تحيا بجانبه وتأخذ مكانتي وكل شيء مني .....

ما هذا التعدي السافر على حياتي ومملكتي وأركان منزلي الذي شهد كل أفراحي وأحزاني؟ وكل قطعة فيه عليها لمستي .. والآن توضع عليها أيادي غريبة باردة غير أيادي سيدة هذا المنزل، فلقد أصر يوسف على أن يعيش بجواري، لأنه لا يطمئن عليَ بعيدًا عنه ويخشى أن أنتكس وأدخل في نوبة

إكتئاب، وأنا قبلت بالأمر .. فلم يعد لديَ أدنى مجادلة أو قوى لأي شيء، ولأول مرة بعمري أشعر بأني وصيفة بعد أن كنت دائمًا ما أشعر بأنني الملكة، ولأول مرة أنتبه لظهور خصلات من الشعر الأبيض، ولشحوب وجهي .. وأقارن بيني وبينها، وأمقتها لأنها تصغرني بأعوام، وتتفوق عليَ بجمالها وسنها الصغير، وأنا لم أعد على سابق جمالي .. برغم أن أي شخص يراني لا يعطيني عمري الحقيقي، ولا يصدق أني في السابعة والثلاثين، الأفكار تنهش رأسي كالوحوش الضارية، ولم تهدأ إلا بعد أن حطمتُ مرآتي وكل شيء في الحجرة، وبعد ذلك غلبني النعاس بعد إنهاكي الشديد، وأتى يوسف لحجرتي لأول مرة منذ عشرين يومًا ليجدني ولأول مرة في مظهر مثير للشفقة، استيقظت ورأيت في عينيه تلك النظرة المؤلمة حقًا لإمرأة مثلي لا تحتمل إشفاقًا أو عطفًا من أي إنسان، أغمضت عينيَ وأشحت النظر عنه .. وفي الصباح كنت قد أعددت حقيبتي واستقليت سيارتي؛ قاصدة الإسكندرية .. حيث الهواء البارد اللطيف والبحر، وربما لأنني تذكرته بعد كل تلك المدة، تذكرت مصطفى .. وكأن الظروف اليوم تدفعني دفعًا إليه، بعد أن ظننا أن تلاقينا هو المحال، وها نحن اليوم وفي نفس المكان نلتقي مجددًا، وأراه وأتحدث معه بلا خوف أو أدنى إحساس

بتأنيب الضمير، بعد أن تزوج زوجي من أخرى ولم يعد لي وحدي .. فما العجب في أن أبحث أنا أيضًا عن سعادتي ..؟
جلسنا بجوار البحر وكنت أرتدي فستانًا زهري اللون، وقبعة .. وأبدو كفتاة عشرينية، قد كان مصطفى يصغرني بثلاثة أعوام .. قلت له :

_حين رأيتك للمرة الأولى شاهدت في عينيك حزنًا وهمًا، وشعرت بالمسئولية عن محو تلك النظرة الحزينة اليائسة من عينيك، ولكن وقتها لم تكن الظروف تسمح لي بذلك

رد قائلًا :

_ وهل تغيرت الظروف اليوم؟

نكستُ رأسي وأومأت له .. أن بلى

نظر لي في دهشة وتعجب!

_منذ سبعة أعوام عرفنا بعضنا .. وإندفعت بكل مشاعري وعواطفي نحوك، ولم أكن أعلم أنكِ متزوجة، وبعد أن علمت .. أتذكرين ما قلته لكِ؟

_نعم .. أذكر جيدًا

_قلت لكِ أن مثلي لا يخون، ولا يقبل على نفسه أي وضع به خسة وتعدي على الآخر، وعرضت عليكِ أن تتحرري أولًا وقبل كل شيء، وأخبرتكِ عن الفترة التي قضيتها في المعتقل إثر ثورة يناير، واليوم بإمكانك أنتِ فقط أن تعطينا الفرصة للسعادة، وأن تمحي من عينيَ نظرة الحزن ومن روحي ندبات وجروح المعتقل.

نظرتُ إليه وقلت:

_لم يعد لي في الدنيا غيرك، وكلانا في حاجة حقًا إلى الآخر، وأنا أريد أن نكمل حياتنا معًا بقوة، وأريدك أن تمهلني فترة قصيرة لترتيب أموري وإنجاز آخر مهمة في منزل يوسف.

لم يتفهم ما أعنيه .. وحاول أن يستفسر عن معنى كلامي ولكني قاطعته وانصرفت موكدة له أني سأعود قريبًا، واتجهت إلى القاهرة .. وفي طريقي للعودة تحدثت مع شهيرة شقيقة زوجي والتي كانت أكثر حرصًا مني على ألا ينجب يوسف ولا يكن له وريث؛ فتُحرَم هي ثروته التي تحلم بها طيلة الخمسة عشر عامًا مدة زواجنا، ورتبنا لكل شيء بمنتهى الدقة لإستبعاد فيانكا من حياتنا، وكان الأمر غاية في السهولة، أن نرسم خطة خيانة زوجية من قِبل فيانكا، وبعد

ساعات كانت في طائرتها للرجوع لبلدها، وأما الخطة الثانية والأهم هي أن تكون أموال يوسف حقًا مكتسبًا لنا بأية طريقة، حتى وإن كانت إنهاء حياته، لأصير بعدها أرملته وأرث فيه، وبعد ذلك أتزوج من مصطفى وأحقق كل شيء حلمت به، وبالفعل تكاتفنا أنا وشهيرة، ولهيب كراهيتنا وطمعنا يكاد يحرق كل شيء حولنا، وأجهزنا عليه .. وقضينا عليه، وأنجزنا المهمة بأيدٍ غير مرتعشة، وبعد ذلك توجهت إلى الإسكندرية، وبينما أنا في طريقي حدث ليَ إصطدام وتم نقلي إلى المشفى وحين استفقت وجدتني محاطة بالخراطيم والجبائر، ويدوي في أذنيَ صوت أألفه جيدًا .. هو صوت زوجي، وانتابتني حالة هلع .. لا أصدق ولا أستوعب شيئًا، يوسف لم يمت!! كيف حدث هذا؟ وهل كنت أحلم أم أنه قد نجا؟ ولكني متأكدة أنه لفظ أنفاسه الأخيرة أمامي .. أنا لا أفهم شيئًا، وحاولت أن أنظر إليه ووجدته يقترب مني ويقول:

_إلى متى سوف ترفضين العلاج النفسي؟ والأهم هو أن تعترفي بأنكِ تعانين من اضطرابات وهلاوس .. إلى متى يا شمس؟

يكفي كل ماحدث، فلقد تعبت كثيرًا مما تفعلينه، هلاوسكِ وضجيجكِ وما حاولتي مؤخرًا فعله معي أنا، نعم .. لقد

حاولتِ قتلي بالمسدس، ولولا ستر الله وحده لكنت ميتًا الآن، واليوم لا أجد حرجًا في أن أخبركِ أنني لن أحتمل مزيدًا من العذاب والمعاناة، ولكِ آخر فرصة لقبول العلاج النفسي وأن تبقي بمصحة نفسية حتى تشفين تمامًا وتعودين كما كنتِ.

لقد سامحتك وغفرت لك كثيرًا يا شمس، والآن .. كفى وعليكِ الإختيار.